الاهتداء

الى قبر معاوية بن أبي سفيان بدمشق

الدوي التاريخي الذي تركه معاوية

لقد ترك معاوية منذ نشأته الى الحشر ، دوياً تاريخياً « كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » . أما في منشإه : فقد روى لنا محمد بن سلام الجمحي صاحب الطبقات عن أبان بن عثمان قال : كان معاوية بمنى وهو غلام مع امه فعثر فقالت له : قم لا رفعك الله ، فقال لها اعرابي سمعها : لمَ تقولين له هذا ؟ والله اني لأراه يسود قومه ، فقالت : لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه ! وقد ساد قومه كما توسّمت وهو فتى ، فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلده إمارة الشام وهو في مقتبل عمره ، وأعجب له مع ابن الخطاب وهو يحاوره . ففي الاستيعاب : قال عمر إذ دخل الشام ورأى معاوية : هذا كسرى العرب ، وكان قد تلقاه معاوية في موكب عظيم ، فلما دنا منه قال له : أأنت صاحب الموكب العظيم ؟ قال :

— نعم يا أمير المؤمنين . قال عمر :

— مع ما يبلغني عنك من وقوف ذوي الحاجات [1] . قال معاوية :

— مع ما يبلغك من ذلك ! قال عمر :

— ولمَ تفعل هذا ؟ قال معاوية :

---

(١) لعل الاصل : ببابك .

— نحن بأرض جواسيسُ العدوّ بها كثير ، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به ، فإن أمرتني فعلت ، وإن نهيتني انتهيت ؟ قال عمر :

— ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس[1] ، إن كان ما قلت حقاً إنه لرأي أريب ، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب ! فقال معاوية :

— فمرني يا أمير المؤمنين ، فقال عمر :

— لا آمرك ولا أنهاك ؛ وكان يسمع تحاورهما عمرو بن العاص فقال :

— يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه ! فقال عمر :

— لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه !

ونحن إنما نشيد بذكر معاوية في هذه المقدمة من الوجهة القومية ، معتقدين أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحق منه دينياً بالخلافة وانه باعتقادنا معشر السنة كان في خصومته مع علي كرم الله وجهه مجتهداً مخطئاً وكان علي مصيباً ، وأن للمخطئ عن اجتهاد أجراً وللمصيب أجرين ، وأنهما وأتباعهما قد رجعا الى ربهم وهو أعلم بهم وسينبؤهم بما كانوا فيه يختلفون ، والمسلمون اليوم في حاجة حاقة إلى توحيد كلمتهم ، والعرب منهم خاصة أحوج ما يكونون اليوم إلى لم شعثهم وضم ما انتشر من الفتهم ، ونحمد الله أن أوجد فينا بأخرة من أفاضل الشيعة من ينصف معاوية من الوجهة القومية كما ينصفه السنة وأكثر ، فلولا معاوية وحسن سياسته ، وما ملأ الاسماع من أنباء حلمه وكياسته ، لما توطد للعرب ملك في ديار الشام . واستمع لشهادة ابن عباس فيه ففي تاريخ البخاري قال ابن عباس :

(١) لعلها الفرس إذ لم نجد في التاج واللسان ان للضرس رواجب إنما هي للحمار على سبيل التمثيل فللفرس وغيرها من ذوات الحوافر رواجبُ ، قال في التاج : والرواجب من الحمار عروق مخارج صوته عن ابن الاعرابي وأنشد :

طوى بطنه طول الطراد فأصبحت تقلقل من طول الطراد رواجبه

ولعله أراد تركتني في مثل رواجب الفرس اضطراباً ، نقول هذا الى أن نجد نصاً واضحاً وقولا شارحاً .





ما رأيت أحداً أحلى للملك من معاوية ·

ثم استمع لشهادة عبدالله بن عمر إذ يقول : ما رأيت أحداً بعد رسول الله (ص) أسود من معاوية ، فقيل له : فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رض) فقال : كانوا والله خيراً من معاوية ، وكان معاوية أسود منهم ؛ فيفضله عبدالله على أبيه عمر في السيادة ، وأنعف بها من شهادة ·

ولاية معاوية على الشام

ولاه عمر على الشام عند موت أخيه يزيد سنة تسع عشرة ، وكان عمر كتب الى يزيد بن أبي سفيان يأمره بغزو قيسارية فغزاها وبها بطارقة الروم فحاصرها أياماً ، وكان معه بهذه الغزاة أخوه معاوية فتخلفه عليها ، وصار يزيد الى دمشق فأقام معاوية على قيسارية حتى فتحها في شوال سنة ١٩ للهجرة ·

وتوفي يزيد في ذي الحجة من ذلك العام في دمشق واستخلف أخاه معاوية على عمله فكتب اليه عمر يعهده على ما كان يزيد من عمل الشام ورزقه الف دينار في كل شهر فأقام أربع سنين ، ثم مات عمر وأقره عثمان عليها في اثنتي عشرة سنة الى أن مات ولم يبايع علياً متهماً إياه بمقتل عثمان فكانت الفتنة وحاربه خمس سنين ، واستقل بالشام ، ثم أضاف اليها مصر ، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ، ثم استقل بالملك لما صالح الحسن رضوان الله عليه واجتمع الناس عامئذ فسموه عام الجماعة ، قال عبد الملك بن مروان : عاش ابن هند (يعني معاوية) عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ·

كتابة الوحي

في دمشق ثلاثة من كتاب رسول الله (ص) زيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وقد اختص معاوية من بينهم بمراسلة قبائل العرب فكان لذلك من أعلم الناس بها وأقومهم بسياستها ، قال المدائني : كان زيد بن ثابت يكتب الوحي وكان معاوية للنبي (ص) فيما بينه وبين العرب ، فهو بذلك

شبيه بمدير العشائر على عهد الحكومة الفيصلية، أو رئيس المكتب العربي[1] في حكومات هذا العصر، وكأنه إنما اضطلع بالكتابة بدعوة النبي (ص) له كما كان يدعو لعماله، فعن العرباض بن سارية — كما في الاستيعاب — قال سمعت رسول الله (ص) يقول: اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب.

وفاة معاوية بدمشق

وتوفي معاوية بدمشق يوم الخميس في النصف من رجب سنة ستين على الصحيح، وهو ابن ٨٢ سنة وكان قد ادخر ليوم احتضاره ثوباً للنبي (ص) كان يلبسه على جلده، وقلامة من أظفاره وقصاصة من شعره فقال لابنه وهو يحتضر: إذا أنا متّ فاجعل ذلك القميص دون كفني مما يلي جلدي وخذ ذلك الشعر والاظفار فاجعله في فمي وعلى عيني ومواضع السجود مني فان نفع شيء فذاك، وإلا فان الله غفور رحيم، ثم تمثل محتضراً بهذا البيت الحكيم:

فهل من خالد إما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار

كيف اهتديت الى قبره الصحيح؟

ذهبت عصر الجمعة في السابع من شوال ١٣٥٦ (١٠ كانون الاول — دسمبر ١٩٣٧) في يوم صحت سماؤه وصح هواؤه للتنزه في حدائق دمشق الغناء مع صديقين رفيقين لأحدهما «بستان السيوفي» نسبة الى اسرته يقع قبلي مقبرة باب الصغير — ولعلها أقدم مقابر دمشق — وكان من مخاصير الطرق أن نجتاب هذه المقبرة القديمة، وكان من عادتي كلما مررت بها أن أسأل الحفارين بها عن قبر معاوية، فلما مررنا بقبور آل البيت وتبركنا بزيارة قببهم رضوان الله عليهم، تغلغلت بين القبور المجاورة فرأيت حفاراً قبلي القبتين المنسوبتين لام حبيبة بنت أبي سفيان ولام سلمة من أزواج الرسول (ص)، فسألته عن قبر

(1) Arab bureau.

م ٨





معاوية فقال الحقني فلحقته وصاحباي على أثري الى أن بلغنا حجرة من اللبن مسقوفة بأعمدة من شجر الحور بابها الى الغرب ، وهي هنا واقعة قبلي المقبرة قريباً من مسلخ المدينة ، فأخرج الحفار مفتاحاً من الزنار وفتح الباب فدخلنا الحجرة فواجهنا قبراً على موضع الرأس منه عمامة خضراء من الحجر وفي واجهته الغربية حجران مكتوبان ، أعلاهما الواقع تحت العمامة بقدر دفة كتاب كبير نقش عليه في السطر الأعلى ما نصه :« قبر سيدنا معاوية رضي الله عنه » وتحته: « جدد هذا المقام صاحب الخيرات اونوى (كذا) الحاج محمد باشا محافظ الشام سنة ١١١٥ » وهو محمد باشا العظمي وكان مولعاً باهداء الكتب والمصاحف الى المساجد ، والحجر الثاني من تحته قطعة يبلغ ارتفاعها الذراع من عمود من الحجر المزي الصلد به بعض شقوق وتحطيم زبر عليه ما نصه والسطر الأعلى لا يقرأ :

« هذا قبر خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

ثم خرجت من الحجرة وبحثت عن القبور المجاورة فشاهدت قبراً متصلا من جانبه الشمالي بجدار الحجرة الجنوبي وله شاهدتان قائمتان : الغربية منهما عليها خط كوفي تصعب على عجل قراءتها ، والشرقية أصلد حجراً منها وأوضح كتابة عليها ما نصه :

« هذا ضريح الفاضل الكبير والعلامة النحرير صاحب التآليف الجامعة والتصانيف النافعة ولي لله من غير ارتياب ومن الدعاء عند قبره مستجاب سيدنا الشيخ أبو الفتح نصر بن ابراهيم بن داود المقدسي قدس سره العزيز سنة ٤٩٠ »

وهنالك قبور أخرى لعلماء مشهورين منهم في القرن السادس خطيب دمشق وامامها ومفتيها عبد الملك بن زيد التغلبي الدوامي من أئمة الشافعية المؤلفين توفي سنة ٥٩٨ للهجرة ، والى جانبه قبر أبي البيان محمد القرشي الدمشقي شيخ الطائفة البيانية كان شاعراً وإماماً في اللغة وفقيهاً مؤلفاً وزاهداً صاحب أحوال ذكره

ابن كثير في الطبقات توفي سنة ٥٩٠، الى قبور قديمة اخرى.

أما عبارة (خال المؤمنين) في شاهدة معاوية فلأن اخته السيدة ام حبيبة زوج النبي (ص) هي أم المؤمنين فهو خال المؤمنين، وقد رجعنا من المقبرة مع الغروب الى منازلنا، وأخبرت ثاني يوم صديقي مدير الآثار في دمشق الامير جعفر الحسني حفيد الامير عبد القادر الكبير وأنبأته باهتدائي إلى قبر معاوية والى ما حوله من القبور القديمة، فسر لهذا النبأ الاثري التاريخي العظيم ونهض معي لزيارته فذهبنا وقت الزوال الى المقبرة ودخلنا الحجرة وشاهد الحجرين لان علماء الاثار لا يحفلون كثيراً بالاقوال الشائعة ما لم يروا أثراً ناطقاً ودليلاً صادقاً، ثم أريته قبر الامام المقدسي الملاصق للحجرة وما حوله من القبور القديمة التي تبلغ بمجموعها نحو عشرة قبور فقرأنا الشواهد معاً، وكان بعض التواريخ مدفوناً في الارض فكشف لنا الحفار عنها حتى قرأناها وكتبنا ما قرأناه ورجعنا أدراجنا، ثم بحثنا في شذرات الذهب عن ترجمة نصر بن ابراهيم المقدسي فوجدنا له ترجمة عالية فقال لي مدير الآثار:

لو وجدنا في هذه الترجمة ذكراً لدفنه قرب معاوية لزال كل شك، واذا كان من أئمة الشافعية راجعنا ترجمته في كتاب (تهذيب الاسماء والحلقات) للامام النووي، فوجدناه لم يترجم لنصر غيره، ورأيناه يجله الإجلال كله ويذكر انه من المرجحين في المذهب الشافعي وانه في كتابه (الحجة على من ترك المحجة) لم يذكر في المسائل التي قيل فيها قولان إلا قولاً واحداً رجحه، وذكر ان الامام الغزالي أخذ عنه وانتفع بصحبته، وانه سمع من الشيوخ يستجاب الدعاء عنده يوم السبت، كما كتب على الشاهدة، فدعوت لله والامير جعفر كثيراً لان زيارتنا له كانت يوم السبت، ثم قال الامام النووي في تهذيبه[1] ما نصه:

« وقبره بباب الصغير بجنب قبر معاوية وأبي الدرداء رضي الله عنهم

---

(١) الجزء الثاني من القسم الاول ص ١٢٦.

يكثر الناس زيارته والدعاء عنده » ، ولم يزل النساء يزرن قبره إلى يوم الناس هذا للتبرك به والدعاء عنده يتوارثن جيلاً بعد جيل معرفة قبره وما خصّ به من البركة ، وقد جهل جل الشيوخ حتى الشافعية منهم قبره ، كما جهل الناس بدمشق قبر معاوية إلا بعض الحفارين بباب الصغير والعجائز من النساء اللواتي يزرن قبر نصر المقدسي رحمه الله .

ولما قرأنا تنويه الامام النووي بدفن المقدسي بجنب قبر معاوية وليس بين القبرين غير نحو مترين قال مدير الآثار الأمير جعفر : الآن حصحص الحق ، وهو دليل علمي قاطع كما أن الحجرين على القبر دليل أثري نافع ، وفي دمشق قبران آخران منسوبان لمعاوية أحدهما في محلة الشرفاء من حارة النقاشات تحت قبة أيوبية العهد يقولون إنه قبر معاوية الكبير وقد زرته مرتين وليس في القبة ولا على القبر شيء من الكتابة ، وفي زقاق يعرف بزقاق معاوية قبر في زاوية قادرية فيها كثير من الطبول والمسابح والدفوف مغشى بالجوخ الأخضر ينسب لمعاوية الصغير ، وليس في هذه الزاوية أثر كتابي يدل على المدفون ، هذا هو الشائع اليوم بين جمهرة الشاميين ، وقد غرّ هذا الشائع الحافظ ابن طولون إذ يقول في كتابه بهجة الانام : « في الحائط القبلي من جامع دمشق في قصر الأمارة الخضراء قبر معاوية وهو الذي تسميه العامة قبر هود عليه السلام » فلعله يعني القبر المنسوب إلى معاوية الصغير ، وقد أجمع سائر المؤرخين أن معاوية مدفون بمقبرة باب الصغير ، منهم ابن عساكر في تاريخه والنووي في تهذيبه وابن الحوراني في رسالته « الاشارات إلى أماكن الزيارات » وكثيراً ما يترجمون مشاهير العلماء وينصون على انهم دفنوا قرب معاوية بباب الصغير كما فعل النعيمي في كتابه « الدارس في المدارس » في ترجمة الامام شمس الدين الصرخدي المتوفى سنة ٧٩٢ فقد قال ما نصه : « ودفن بباب الصغير بالقرب من معاوية رضي الله عنه » .

وخلاصة البحث والتنقيب أنه لا يشك أحد من المؤرخين أن أول ملوك العرب معاوية بن أبي سفيان توفي ودفن في دمشق ، وليس من شك أنه في

مقبرة باب الصغير ، وقد اطمأن قلب مدير الآثار العلامة وقلبي بما ذكرته من الدليلين الأثري والعلمي انه القبر الذي اهتديتُ اليه وقرأنا حجريه.

وفي اليوم الثالث خفّ معي لزيارته العلامة الدراكة وزير المعارف السيد عبد الرحمن الكيالي الذي نهض بمعارف الشام نهضة مأثورة مشكورة مع السيد عارف النكدي مدير العدل وعضو مجمعنا العلمي ، وفي اليوم الرابع بشرت صديقي الاديب البارع الكبير السيد خليل مردم بك عضو مجمعنا بذلك وكنا تعبنا معاً كثيراً في التنقيب عن قبره ، فذهبنا إلى باب الصغير وقبل دخول المقبرة دخلنا القبة الغورية القائمة في مدفن آل مردم ، وبجانبها قبتان مهدومتان فيها قبور يقال ان بها قبراً لمعاوية فلم نجد من الكتابة ما يدل على ذلك وإنما وجدنا كتابة تدل على دفن أمير شركسي يعرف باسم بهادر المالكي الناصري ، ثم سرنا إلى قبر معاوية زرناه وجاره المقدسي وما حولها من قبور العلماء والصالحين فجزم مثلنا بأن القبر الصحيح الذي اهتديت بأخرة اليه هو قبر خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان كاتب الوحي ورديف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عز الدين التنوخي





